الأيديولوجيا والوعي الزائف
(قراءة في بيان أوجه التباين ما بين الايديولوجي والمعرفي)

أ.د محمد عطوان

نتناول في هذه الدراسة التَطوّر التاريخي لمقولة الأيديولوجيا وعلاقتها بكل ما يُمكِن أنْ يكون معرفياً.. الأيديولوجيا بنية عقليّة مثاليّة مُتخيّلة، والناس يمارسون من خلالها تجربتهم الحياتية، ويمثلون عملياتهم الماديّة ذات الصلة بظواهر الوعي، وبما له أصل مُحدَّد في الواقع الاجتماعي. فهي من منظور ماركس؛ الوجه السلبي من وجوه الوعي الزائف الذي يخفي أصلَ التعارض الواقعي داخل الجسد الاجتماعي ويُبرِّر صُور السيطرة والاستغلال عبر ممارسات لغويّة تستحثّ علاماتَها في جهاز أدبي مؤسساتي مهيأ لهذا الغرض.

ونظراً لتعدد المدارس الفلسفية، وتباين مدلولات اللغات المختلفة التي تقترح تعريفات مُحدَّدة؛ يتعسّر على المُصنِفين وضعها في إطار دلالي جامع؛ فتعريفها ينصرف إلى غير دلالة ومعنى، وموضوعها ليس مُجمعاً على تناوله بصُورةٍ واحدة. وبقدر ما يقود التنقيب والبحث إلى تلَمّس تعريف مُحدّد ومقنن لها، فإنّ تعريفات لا عدّ لها تتوالد لحظةَ البدء بتوصيفها.

ولعلنا نضع اليد في هذه المُقاربة على تعريف بيّن وشائع للأيديولوجيا، سواءً أكان هذا التعريف يتحدَّد من منظور طبقة اجتماعيّة أو كتلة قوميّة أو أي منظور آخر، باحتساب أن لكُل نظام معرفي ديني أو أخلاقي أو فلسفي منظور أيديولوجي مُعيّن، وهذا النظام المعرفي ينطوي على رؤى موجهة يعسر اخفاءها، مهما بولغ في إظهار تأسيساته العلميّة، لذلك ينصرف عمل الأنظمة المعرفيّة إلى التقليل من توظيف الأيديولوجي لجهة نهوض ما هو معرفي.

وبناءً على ما تقدّم، سنتقصى طبيعة المسار التَطوّري التاريخي لمقولة الأيديولوجيا عبر تحليل نشأتها ومآلها ومعرفة صلتها بما هو واقعي ومعرفي وعِلمي، وبما يُطلَق عليه الوعي الزائف أيضاً، والذي غالباً ما يُحال قدرٌ كبيرٌ منه إلى ما هو أيديولوجي، ومن ثم متابعة آليات اشتغال السُلطة المهيمنة التي تصنع بوساطة الأيديولوجيا أطراً مُحدَّدة للمشروعية.

١ ـ مفهوم الأيديولوجيا

لقد مر استعمال الأيديولوجيا بمعان متنوعة ومتضايفة من لغة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى ثقافة أخرى، وبحكم ارتحالها اللغوي استُعمِلت من جميع اللغات الحية؛ فالفرنسيون عرّفوها بأنّها عِلم الأفكار ولم تستقر على معناها اللغوي ذاته، فاستعارها الألمان وضمنوها معنى تأويلياً دالاً على القلب والتزييف[1]، ثم عادت إلى الفرنسيين من جديد، فأُعادوا النظر في الوظيفة التي كانت تؤديها، حتى أصبحت غريبة عن لغتها الأصل. ولقد أشار العروي إلى صعوبة تحديد معنى نهائي لها بقوله؛ "ليس غريباً أنْ يعجز الكُتّاب عن ترجمتها بكيفيّة مُرضية"[2].

لذلك كثرت تعريفاتها وتنوّعت اتجاهاتُها تبعاً للمجالات المعرفيّة التي تتحرك في ضمنها، فظهرت تعريفاتٌ تُشدِد على الجوانب الفلسفيّة، وأخرى تهتم بالمضامين الاجتماعيّة، وثالثة تُعنى بالأبعاد النفسية، فتلوّنت المشارب وأصبحت تُحدّد بعقيدة أصحابها وبنظرتهم للحياة والإنسان، وبموقعهم من القيم الماديّة والروحية. فصار متعذراً الاتفاق على تحديد ماهية مُعيّنة لها، لاسيما أنّ المفاهيم المتعدِّدة حول ما هو عام تجعل كُل تعريف ومفهوم يختلف عن الآخر.

١ـ١ الأيديولوجيا بوصفها تمثيلاً للواقع

المُلفت في الأيديولوجيا أنّ واحدة من مُشكلات تعريفها هي توصيفَها من وجهة نظر أيديولوجيّة، وتناولها انطلاقاً من مرجعيات قوميّة أو ليبراليّة أو ماركسيّة. ومهما قيل عن صلتها بالعِلم فإنّها من منطلق اعترافها بنفسها كأيديولوجيا لا تعترف بواقع الأيديولوجيات الأخرى، لأنَ القول بتعدد أشكال استخدامها وتوظيفها في كتابات جمة يُبدِد مضمونها المعرفي الذي يُراد له أنْ يكونَ دالّا وفاعلاً في بناء تَصوّرات ومواقف واقعيّة محددة.

لقد نشأ مفهوم الأيديولوجيا في القرن الثامن عشر؛ في سياق الصراع البرجوازي ضد الإقطاع والمُجتمع الارستقراطي التقليدي، وفُهِم فهماً سلبياً مع نابُليون بونابرت الذي عارضَ بعض الفلاسّفة تطلعاته الإمبراطورية، فوَصَفهم بالحمقى والجرثومة الخطرة[3]. وهذا ما جعل الأيديولوجيا تصطبغ بصبغة سلبية في علاقتها بالواقع، صبغة مُماثلة للنظري والمثالي وغير العملي. ومن وجهة نظر موازية، بدت، بما تمثله من تشييد نظري، رومانسية اجتماعيّة: تُقيم

---

[1] يُنظَر: كارل ماركس وفردريك أنجلز، الأيديولوجيّة الألمانية، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر، 1976، ص30.

[2] عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط5، 1993، ص9.

[3] ريجيس دوبريه، نقد العقل السياسي، ترجمة: عفيف دمشقية، منشورات دار الآداب، بيروت، 1986، ص131.

جدلاً زائفاً عن معنى التنوير، لا صلاحية فكرية له بالنسبة لوجهة نظر الخصوم، وأنّها ليست واقعيّة فيما هي عليه لجهة الممارسة الفعليّة، أو ليست واقعيّة لجهة الأمور المتجسدة في الواقع السياسي على سبيل التحديد.

اشتقت الأيديولوجيا من أصل لاتيني ideal؛ أي، المُثل أو المثال، وعند النسبة تعني المثاليّة، أو تعني الطريقة المُتخيّلة التي يزاول الناس فيها تجربتهم الحياتيّة الواقعيّة. وبقول آخر هي تمثيل ذهني لعمليّة ماديّة[1] ومنظور لتفسير الطبيعة والمُجتمع والفرد بصُورة دائمة[2]. وأنّها تمثيل: لكونها انعكاساً للشروط الاجتماعيّة القائمة المُؤسِّسة لهدف مرسوم في مسيرة التاريخ العام[3]. فهي تتصل بظواهر الوعي، بما لهذا الوعي من صلات بالواقع الاجتماعي الذي يؤسس لنسق من المُعتقدات والمفاهيم والأفكار الواقعيّة والمعيارية على حد سواء.

لذلك تُفسَر الظواهر الاجتماعيّة المُعقّدة بمنظورات تتمايز من فرد إلى آخَر ومن جماعة إلى أخرى[4]. فيدرك الأفراد أو الجماعات أو الطبقات الاجتماعيّة علاقاتَهم بشروط وجودهم، فيُمثلون الواقع بصيغ تَنكّرية(*)، ويخفون أساساً مادياً مُعيّناً، يُبرّرُون من خلاله لذواتهم سلوكاً استغلالياً ما. فيكون التمثيل عندهم بمثابة آراء أو تَصوّرات غرضُها إبراز قيمة أهداف جماعية مُعيّنة وتسويغُها.

في ضوء ذلك تُحدِّد الفرضيات العِلمية موقفاً صارماً من كُل ما هو أيديولوجي. ويتحدَّد مثل هذا الموقف عندما يتعذّر على الأيديولوجيا من الناحية الأبستمولوجية بلوغ كنه الواقع بما يسعى الفكر العِلمي لذلك، خاصة عندما تُؤوَّل شروط الوجود المُعقدة لجهة ما هو مثالي، فتبدو الأيديولوجيا في هذه المُقايسة منسجمةً وخيّرة، ومغريةً، ومطوّبة للواقع (غير مُفكِّكة له)، متخذةً أحياناً مواقفَ بالاعتماد على نظريات عِلمية صرفة، فيحصل نوعٌ من التأويل التواضعي الأداتي للعلم.

---

(1) Louis Althusser, For Marx, Translated by: Ben Brewster (New York: 18 Pantheon, 1969), pp 231-232.

(2) المقصود هو ديمومة التكون، وإلا فإنّ حقيقة الأيديولوجيا تُخلَق لخدمة أهداف محدّدة لا لتبقى مدى الدهر، ومتى ما حققت أهدافها تركت المجال لغيرها، فتنتهي إلى تشكّل نسقي جديد. برهان غليون، اغتيال العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط4، 2006، ص196.

(3) عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، ص103.

(4) عن: عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري، الأيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفيّة المعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية، كُليّة الآداب/قسم الفلسفة، 2000، ص19.

لكن ما يُميز الأيديولوجيا عن العِلم وظيفتُها العمليّة المُجتمعية التي هي أمضى وأوقع من وظيفتها المعرفيّة العِلمية! والأمثِلة التي تدعم ذلك كثيرة؛ فالماركسيّة تصف نفسَها بأنّها اشتراكيةٌ عِلمية، لكنها تبدو تمثيلاً ومقاربةً للواقع الاجتماعي بما تتملك من أدوات، وباحتساب أنّ أيةَ فكرة، ضمن هذا السياق، مهما حاولت الالتزام بالمنهج العِلمي بمقاصده النظريّة تصبح ذات طبيعة أيديولوجيّة ما لم ترتبط بالحركة الاجتماعيّة. والسبب هو في أنّ الرؤيتين الواقعيّة والأيديولوجيّة تتحوّلان إلى نوع واحد، ويكون التداخل بينهما على هذا النحو طالما أنّ الواقعَ بكلمات سلافوي جيجيك: الشيء الذي لا يُمكِن الدخول إليه بصُورة مباشرة؛ أو الشيء الذي يتهرب من قبضتنا[1]، فيحملُ معه مبدأ إبهامه وضبابيته.

لهذا السبب يديم العِلم مشروعيته إذا ما قُرِئَ من منظور فلسّفة العلم لا من خلال الأيديولوجيا، فالعِلمُ لا يعقب التجربة إنّما يسبقها بالكامل! بمعنى أنّ أي اكتشاف علمي هو حقيقةٌ موجودة بالفعل قبل أنْ يُدركَها عقلٌ بشري، فكُل ما هو محفوظ هو بالضرورة موجود على نحو حقيقي، لكن حقيقته تكون مضمرة. لذلك يُحدد العِلمُ ميدانه خارج ما هو أيديولوجي، من مُنطلق إنّ العِلمَ: "ليس الشيء نفسه صار حقيقياً، إنّما شيءٌ آخَر غير الأيديولوجيا[2]". العلم نظام مفتوح ويتأثر بمحيطه، فهو تلقائياً يصنع ثم يعود فيصنع تأريخه في كُل لحظة.. والعِلم إذ يفعل ذلك لا يلغي ميدان الأيديولوجيا ولا شرعيتَها، بل يستقل بنفسه عنها موظِفاً أدواته التجريبية ومقاصده المعرفيّة. فيتركَ لها ميدانَها الاجتماعي والسياسي من دون أنْ يضيره أنْ تصبح جزءاً من نظام عقل الواقع[3]، حتى وإنْ كانت نظريتُها في تجسيد الواقع وتأسيس نظامه ليست مما يتطلع إليه العِلم غالباً.

تنبع مشروعية العِلم من بلوّرة رؤية مُعيّنة لنظام اجتماعي ما، لكن هذه المشروعية تظل تتوسل قبولاً ضافياً داخل المجتمع مقارنةً بمشروعية الأيديولوجيا، بخاصة إذا ما مارست الأخيرة وظيفةَ قلب المنظور، فتقرأ الواقعَ بخلاف ما يقرأه العِلمُ. يقول جان مولينو: لا يعكس العِلم الواقعَ، ولا يعيد تمثيله، ولا يدّعي كشفَ "الحقيقة "كاملةً إذا ما قيس ذلك بما تصنعه الأيديولوجيا[4].

---

[1] سلافوي جيجيك، سنة الأحلام الخطيرة، ترجمة: أمير زكي، دار التنوير، بيروت، 2013، ص48.

[2] بول ريكور، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2002، ص182.

[3] برهان غليون، اغتيال العقل، مصدر سبق ذكره، ص194.

[4] عن: المصدر نفسه، ص22.

إذن ما يُميز الأيديولوجيا عن العِلم أنّ الأخير مهما تفننَ في تحديد موضوعيّة الطبيعة والعلاقات بين أجزائها يقف عاجزاً عن تفسير تلك الطبيعة بمصطلحات "العِلل الغائية"[1]، فيُقدِّم كشفاً للوجود الاجتماعي. فيما تُعوّض الأيديولوجيا النقص أو الفراغ الحاصل فيما كُشِف عن هذا الوجود بابتداع تمثيل "الحقيقة"، أو صُورتها التي توحي بتماميتها بسلب النقص منها (استلال صُورة الحقيقة)، فتبدو أقربَ ما تكون إلى التخيُّل منه إلى "الحقيقة".

١ـ ٢ الأيديولوجيا بوصفها تخييلاً جماعياً

يُمكِننا في ضمن ذلك أنْ نُلاحظ ما كانت تقترحه الأيديولوجيّة العربيّة ببُعدِها القومي وكيف أنّها قدّمت حُججها بشأن الميل إلى العروبية، وعن أسباب انبناء كينونة "الأُمّة" وسط تمظهر عوامل الانقسام والتنافر فيها، سواءً ما بدا منها على صعيد الدول الناشئة حديثاً أو على صعيد الطبقات، أو حتى على صعيد الجماعات والثقافات المبنيّة على أسس إثنو طائفية. وفي ذلك نُلاحظ كيف أنّ الأيديولوجيا تُخفِّف من حدة التعارض فتقدّم خيارات متعدِّدة لتحقيق ما تعتقد بأنّه تمثيلٌ لهدفٍ قابل للتحقق، ومشروعٍ للجماعة العربيّة ككُل. بمعنى إنّها تفلح في تقديم ذاتها من خلال معرفة علمية، وعبر تغليف مضامينها بـ "اللغة العلمية"، وتوظيف مفرداتها لملائمة الواقع الموضوعي.

فالوطن على سبيل المثال لا تُرسِخ حقيقته الأفكار الموضوعيّة ذات الطابع المعرفي والعلمي، قدر ما تُرسّخها الشعارات والكرنفالات والأناشيد والأغاني والطقوسُ، فيتم احياء هذه الفعاليات بين الجماعات المختلفة بأسلوب توجيهي لإنعاش المجال الجماعي بالتخييل، وليتسنى إنتاج [مقولة الوطن] في أذهان الجماهير مراراً وتكراراً، فيدخل الكُل في أجواء احتفالية هيجانية.. وبوساطة هذه الكرنفالات الحاشدة والأناشيد والأغاني والموسيقى الشعبية والفولوكلور يُستَدعى الإرث الثقافي جمالياً وفنياً ليُساند ويُعيد ترتيب المواقف والمُتبنيات القوميّة القائمة على المنظور الفكري والفلسّفي.

وبما أنَّ العلاقةَ ما بين هذه الفعاليات والمعتقد العروبي هي علاقة تَساند، فإنّها تؤمِّن حساً مُشتركاً يفتح باباً على نظام من التمفصلات الخادعة التي تُظهر المفاهيمَ مرتبطة بروابط مجازية وتذكرية ليس إلا[2]. ففي الوقت الذي تَتزوّد فيه الفعاليات من مُعتقدِها العروبي ترتد هي نفسها إلى التأثير على ذلك المُعتقد، فتزيد من قُوّته وتماسكهِ، والسبب في ذلك هو الطابع الجمعي الذي

---

[1] هربارت ماركوز، الانسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ط3، 1988، ص184.

[2] Ernsto Laclau, Politics and Ideology in Marxist Theory (Capitalism – Fascism – Populism), London, LNB, 1977,p7.

يعمل على تغيّير الحالة الذهنيّة والنفسية للأفراد. وهذا الطابع هو الذي يُجدّد حماسَ الأفراد ويعطيهم الإحساسَ بوحدة إيمانهم ومعتقدهم على حد سواء.

لذلك تُركز الأيديولوجيّة العربيّة على فاعليّة التخيّيل في تمثيلها لصُورة الاجتماع العربي، والتأكيد على ذاكرة الجماعة العربيّة لتَحصيل مشروعية امتلاك رأسمالها؛ بإمالة ما هو عقلاني عن حقله المُقترح لجهة استحضار ما هو مُتخيَّل وما يمثل علائق سوسيولوجية متحكمة بذاكرة الأفراد والجماعات، ولتكون نسقاً من الأفكار والتمثيلات الجماعية المُتضمنة صُور الوهم والزيف، فتضع ذاتها في "علاقة مُتخيلة مع الشروط والأحوال الواقعيّة للوجود"[1].

كذلك تستوحي الماركسيّة العربيّة أفكارها من واقع ثقافي واجتماعي مجرد، مُغاير للواقع في صُوره العيانية، فالماركسية في العالم العربي تفترض وجود طبقة طليعية من بين الطبقات الاجتماعيّة المتباينة، أو أنها تتعامل مع طبقة ليست موجودة[2]، ويَضطلع الحزب السياسي أو الحركة السياسيّة أصالة عنها بوصفه رافعةً طبقية تعيد بنيان الواقع من جديد، وهو نوع من التكييف الأيديولوجي الذي تُستعار من خلاله "صُورة الماركسيّة" لتمثيل واقع غير واقعها..

تقودنا هذه المُقاربة للماركسيّة (ما بين الواقع المفارق وصُورته المجازية) إلى الوقوع في شكل من أشكال الانتحال الظاهراتي الميكانيكي الذي يُزيّف الواقع، والذي ما كان ليكونَ على هذا النحو لولا استبدال الرؤية العِلمية الصافية منه برؤية أيديولوجيّة، ما يوقع ذلك في عقائدية كُليّة تحوّل الحزبَ أو الحركةَ السياسيّة من أداة مُمثّلة للجماهير إلى وصي عليها. وإنّ مقاربة منهجية من هذا النوع لاختزال واقع التمايز، تُبعدنا عن تفسير الظواهر كما هي، فيكون الأمر بتعبير أمين العالم: "مقاربةً لتفسير الأيديولوجيا بالأيديولوجيا"[3].

إذن التلاعب اللغوي بادعاء ما هو عقلاني غالباً ما يثير الشكَ في مضمون الأيديولوجيا، وفيما له صلة بأصول الأفكار والتَصوّرات التي يجري ابتداعها، وغالباً ما يُثير الشكَ أيضاً في صدق هذه الأيديولوجيا. فهي عندما تنحو بصياغاتها "المعرفيّة" منحى استعمالياً سالباً، يحصل من منظور (كولردج) الشك بمضامينها قبل أي شيء؛ بخاصة عندما تبدأ الحقيقة والاستعارة في ملء فراغات الفكر.

---

[1] يُنظَر: دانيال تشاندلر، معجم المصطلحات الأساسية في عِلم العَلامات، ترجمة: شاكر عبد الحميد، مطابع المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، 2000، ص84.

[2] يُنظَر: حامد خليل، أزمة العقل العربي، دار كنعان للدراسات ولنشر، دمشق، 1993، ص24.

[3] المصدر نفسه، ص78.

وعندما يُوجِه صُناع الخطاب الأيديولوجي سرودَهم صوبَ مُتلقين مُتشككين فإنّه لا يُرتجى منهم غير اثبات صحة ما يسردون[1]. يقول أدورنو: "تُثار الأسئلة في الأحايين التي تكف فيها المعايير عن أنْ تكون بينة[2] من ثمَّ لا بد بتعبير بيتر ونتش من "تدقيق أفكار الناس ومُعتقداتهم بإحالتها إلى شيء أكثر استقلالية وواقعيّة"[3]. فليست الأشياءُ كما تبدو للعيان أبداً.. وهذا ما يجعل من المهم - حسب فوكو - البحثَ عما هو مُضمرٌ أو مخبوءٌ داخلها، أي: داخل علاقات السُلطة.. لذلك من المهم إعمال التَقصّي إلى حدود معرفة البنيات التحتية الاقتصاديّة القادرة على تعرية ما هو بلاغي، وكشف ما هو كامن تحت جهاز الدولة[4]؛ من ثم، فإنّ ماهية المُجتمع تتحدَّد عبر الممارسة (البراكسيس) وليس عبر اللغة المجردة فحسب، أي: عبر الفعل والعمل وتبادل التأثير.

إنّ تمثيلَ أية فكرة أو إثباتَ صحتها أمرٌ نسبي، خصوصاً لمَّا يتعذر على ممارسة تمثيليّة تعريف طبيعة ما هو حقيقي وواقعي. ومن ثم لا توجد حقيقةٌ قصوى أو خلاصةٌ تمامية يبلغها الفكر البشري! وحتى إنْ وجدت تلك "الحقيقة" أو الخلاصة فستبدو بحسب نيتشه؛ "استعارة متصلبة"[5]. وإننا لو رددنا الأيديولوجيا إلى ظروفِها الواقعيّة فأنها لن تظل وهماً مُطبِقاً أو تلفيقاً تاماً، لكنها تغفل مستبقاتها وأساسها ومرماها[6]. ويُقال ألاّ مرجعية مُحدَّدة تَسند الأيديولوجيا، أو فاعل واقعي واحد يقف وراء بناءها للتحقق من صحتها، وإنّه لا بّد لأجل ذلك من اجراء معاينة وتمحيص وبحث في أصول منتجيها الكُثر في ظرفيات متعدِّدة.

إذن من الصعب على عاقل وضع الأيديولوجيا موضعاً مُحدَّداً، بخاصة عندما تغوص في التفاصيل المُعقّدة المنتجة لأنماط من الفكر والسلوك الاجتماعيين، لأنه من المُتعسَّر تحديد الواقع غير الثابت والمتعدِّد الوجوه، الذي يَلزم إعادةَ النظر فيه مِراراً؛ أي تأمين إعادة النظر في

---

(1) يُنظَر: بول ريكور، الزمان والسرد، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ج1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2006، ص ص277–278.

(2) عن: جوديث بيتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة: فلاح رحم، دار التنوير، بيروت، 2014، ص40.

(3) عن: جانغ لونغزي، الأمثولة والتأويل، ترجمة: فلاح رحيم، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، 2021، ص27.

(4) ميشال فوكو، هم الحقيقة (مختارات)، ترجمة مصطفى المسناوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ص52.

(5) كارلين كامبل، البلاغة الحديثة، ترجمة: حسام محمد فرج، عن كتاب: مجموعة باحثين، موسوعة البلاغة، (إشراف: عماد عبد اللطيف)، ج2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016، ص594.

(6) هنري لوفيفر، ماركس وعلم الاجتماع، ترجمة: بدر الدين قاسم الرفاعي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1971، ص71.

الوضعية التي تُحدِّد إدراك الأشياء[1]. فالطبقات المُتصارعة عندما تلجأ إلى تمثيل الواقع في أفكارها وأفعالها ضمن بنية اجتماعيّة ما، فذلك لأنّ الواقعَ مُختلف لكُل من هذه الطبقات[2]، ويتحدَّد، تبعاً له، اختلاف زوايا النظر لدى الجماعات المتعارضة (عصبويات، أحزاب، طوائف) بحسب اختلاف تَصوّراتها في مسار معرفة الواقع وإدراكه ومحاولة إيجاد مقاربة ذهنيّة له.

٢- الأيديولوجيا والوعي الزائف

بفعل تَطوّر المُجتمع البرجوازي واتساع الرأسمالية بدأ الأخذ بنموذج النقد البرجوازي للميتافيزيقا والدين، بخاصة عندما طوّرَ ماركس تَصوّره عن المفهوم النقدي للأيديولوجيا وناقشَ صُور السيطرة والاستغلال الطبقي، فمنذ ذلك الحين لم تعدْ الأيديولوجيا عِلماً أو منظوراً اجتماعياً وافياً يمكن مقارنته بالمعرفة الصحيحة، بل نوعٌ من "الوعي الزائف" الذي يواري التعارضات داخلَ بنية النظام الاجتماعي.

بمعنى أنّ الأيديولوجيا جُملة من الأقوال الفكرية والرموز المُكثَفة التي تُحاكي الواقعَ الاجتماعي، وأنّها بناءً على الموقف الماركسي تمتنع بداهةً عن كشف حقيقة ما يتضمنه الواقع العيني. فالأقوال الفكرية والرموز" تُضفي صفةَ الحقيقة على شيء غير حقيقي بصورة مباشرة، وأنّها تُناقض ما هو كائنٌ فتستهدف حقيقته"[3]. والأيديولوجيا كما هو معلوم، يتمحور وجودها، بصُورة فائقة، على منظومة من الأقوال؛ و"الأقوال لا تحمل حقيقتها فيها، إنّما تتستر على حقيقة باطنية"[4]. وفي الستر نفسه تومئ إليها، وباستخلاص مغزى الإيماء يجري الكشف عن "الحقيقة" المستورة. من ثم، وعبر عمليّة التأويل تُستَشَف الحلول المُرشّحة من بين خيارات متعدِّدة لبلوغ كُنه "حقيقة" ما.

٢-١ تمثيل الواقع ليس الواقع عينه

قُلنا إنّ الصُور الأيديولوجيّة مفارقة للمحتوى المادي الذي يتعيّن عليها حَمله، ويتزايد انفصالُها عنه طالما تنتمي إلى بنى مثاليّة "تندرج ضمنَ علاقات شبه معقولة"[5]. لكنها تبدو

---

(1) يُنظَر الفصل المُتعلق بالشيء والعالَم الطبيعي: موريس مرلوبونتي، ظواهرية الإدراك، ترجمة: فؤاد شاهين، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٩٨، ص٢٤٨..

(2) كارل مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ترجمة: محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، 1980، ص164.

(3) هربارت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سبق ذكره، ص ص 172 -173.

(4) عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، مصدر سبق ذكره، ص43.

(5) كورنيليوس كاستورياديس، تأسيس المُجتمع تخيلياً، ترجمة: ماهر الشريف، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2003، ص ص174–175.

معقولة إذا ما ابتدعت نظاماً يُؤوِّل الواقع بصيغ عمليّة. فلكي تحتفظ أية فكرة بقوّتِها وواقعيتها عليها أنْ تبرهنَ عملياً على تحققها في الواقع، فالجدل حولَ حقيقة متحصلة أو عدَمِها يكون في البراكسيس بالمعنى الألتوسيري، وهو سؤالٌ سبق أنْ ناقشه ماركس بقوله: "اكتفى الفلاسّفة بتأويل العالم، وكان يتعين عليهم تغيّيره[1]". وهذا التغيّير يتأتى من معرفة فلسفيّة ببنية التشكيلات الاجتماعيّة وتاريخها (عبر نظريّة تُسمّى نظريّة المعرفة)، ومن ثم فإنّ ثورةً مزدوجةً في الفلسّفة تتحققَ بتعبير ألتوسير: عندما تُستبدَل النظريات الأيديولوجيّة بغيرها من النظريات العِلمية.. وهذا ما كان يقوله بلوخ أيضاً عن الفلسّفة بأنّها إطلالةٌ على المستقبل تُنشئ العالمَ وتصوغه من جديد، فتبدأ بحلم يخترق الواقعَ ويلتحم بإرادة الإنسان عندما يتجاوز وصفَ العالم إلى تغيّيره[2].

كان ماركس في معرض رده على أيديولوجيا الهيجليين الشباب، الذين اعتقدوا بأنّ الوعيَ يُنتِج العالمَ، وأنّ كُل ما هو عقلانيٌ عندهم واقعيٌ بالضرورة؛ يقول إنّ الممارسةَ هي المصدر الواقعي للفعالية البشرية وليس الوعي؛ ويتحقق ذلك من مُنطلَق الفعلي لا القدسي، والمادي لا الصوفي، لأنّ طبيعةَ الأفراد الواقعيين تعتمد على الأحوال الماديّة التي تُقرر إنتاجهم، فتصبح مسألة الأيديولوجيا تمثيلاً للواقع وليست ممارسةً واقعيّة[3]. فماركس بعد أنْ بدأت تتوضح في ذهنه وتتعين المفاهيم الأساسية للماديّة التاريخيّة، كنمط الإنتاج، وقوى الإنتاج، وعلاقات الإنتاج، والبنية الفوقية، والأيديولوجيا، والصراع الطبقي، تخلى عن مفهوم النزعة الإنسانية، معتبراً إياه مفهوما أيديولوجياً وغير علمي.

لذلك: تنقلب لعبة الديالكتيك الهيغلي إلى نقيضها: فيصبح "كل ما هو واقعي (مكتسب شرعيته) في ميدان التاريخ البشري مآله المكتوب أنْ يصيرَ لا عقلانياً، ومشوباً باللاعقلانيّة سَلفاً؛ وكُل ما هو عقلاني في أدمغة البشر لم يتسنَ له اكتساب صلابة البوح مقدرٌ له أنْ يصيرَ صائتاً وواقعياً بالفعل، مهما بلغَ من تناقض مع الحقيقة الواقعيّة القائمة حسب الظاهر، وكذلك كُل ما هو موجودٌ قمينٌ بالزوال"[4].

---

[1] كارل ماركس وفردريك أنجلز، الأيديولوجيّة الألمانية، مصدر سابق، ص653.

[2] عن: إلياس فرح، أيديولوجيات اليسار الجديد في العالم، المُؤسّسة العامّة للصحافة والطباعة، بغداد، 1971، ص ص139- 149.

[3] يُنظَر: كارل ماركس، الأيديولوجيّة الألمانية، ص139.

[4] كارل ماركس وفردريك أنجلس، حول الدين، ترجمة: ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت، 1981، ط2، ص164.

والعقلاني هو شكل الفكر، والعمل الذي يكافح الزائفَ ويعارض الاستبدادَ، ويحد من نطاق العُنف والاضطهاد[1]، مع ادراك حقيقة أنّ كُل النشاطات العقلانيّة لها حافزها الأيديولوجي. فالحقيقي يبدو لحظة من لحظات ما هو زائف، والواقعي الفعلي ينبثق داخل التمثيل هُنا، والتمثيل واقعي بالضرورة[2]. من ثم، نكون قد أدركنا في الأقل الظواهرَ الطبيعيّة داخلياً، عبر تقرير فكرة عقليّة عنها، وهي الفرضية البيكونية (نسبة إلى فرنسيس بيكون) التي تنقل الواقعَ الخارجي إلى الداخل. لكن وضعَ عالم من التمثيلات حيالَ عالم من البنى الواقعيّة، عبر أشكال من اللغة المُباطنة، يصبح عملاً مخاتلاً ومداهناً، طالما "أنّ معكوس الشيء ليس الشيءَ ذاته، وتمثيل الواقع ليس الواقعَ عينه"[3].

من ذلك نستنتج لماذا خلعَ ماركس على الأيديولوجيا تَصوّراً تبخيسياً، وعبَّر عنها بما كانت تُنتِجه من صُور الوهم؟ أو ما عبَّر عنها بيكون بأنّها:"التفكير غير العقلاني وغير النقدي الموروث من زمن الاستبداد"[4]. لذلك كُل فكر أيديولوجي هو فكرٌ محض رغم ادعاء مِلكيته للواقع، ويظل فكراً محضاً ما لم تتكشفْ حقيقته أمامَ الممارسة الفعليّة، فيصبح النشاط العملي في الأخير الطريقَ الموثوق به[5].

وإنّ إخضاعَ الأيديولوجيا لِما هو منطقي وتمتينَ صلة ما هو منطقي بالواقعي (عبر سحب التمثيلات العقليّة على ذلك الواقع) ينفي حضورها ويحيلها إلى أفكار فارغة لا يُحدَّد مصيرَها سوى العالم المادي. وأنّ مفهومَها يظل مرتبطاً ارتباطاً وظيفياً بمفهومي المُجتمع والتاريخ، فتتحدَّد [الأيديولوجيا] بدلالة بُعدها أو دنوها من المُجتمع والتاريخ، ولا يتحفز عملُها إلا من خلال تعبيراتها وتمثيلاتها للواقع الاجتماعي. وحيث أنّ الواقعَ الاجتماعي نتاج سلسلة تحوّلات تاريخيّة مُعقدة، فإنّ غيابَ المعرفة الدقيقة به يقوض المضمونَ المعرفي للأيديولوجيا أيضاً.

وعندما توصف الأيديولوجيا بأنّها نظاميّةٌ في بنيانها، فإنّها نظاميّةٌ لمَّا تكون عاجزةً عن إعطاء وصف صريح لنفسها فقط، وأنّها: "تجد صعوبةً في وصف طريقتها في التفكير"[6]. لذلك تظل الرؤى الأيديولوجيّة واقعةً بمسافة ذهنيّة تأويليّة من الواقع، تقترح وتفترض طُرقاً شتى له.

---

[1] هربارت ماركوز، الانسان ذو البعد الواحد، ص179.

[2] جي ديبور، مُجتمع الاستعراض، أحمد حسان، شرقيّات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص10.

[3] ريجيس دوبريه، نقد العقل السياسي، مصدر سبق ذكره، ص152.

[4] عن: عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، ص ص25–103.

[5] يُنظَر: كارل مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ص143.

[6] بول ريكور، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، ص180.

بهذا المعنى تظل الأيديولوجيا تُنتِج أفكاراً بديلةً عن الواقع، وتغدو جسراً يعبره الناس في حياتهم اليوميّة، فترتفع بهم إلى مستوى المُثل أحياناً؛ وهذا ما ذهبَ إليه دوبريه بالقول: تبلغ أية فكرة استحقاقها السياسي بفعل مكامنها الغنائيّة أو الإيمانيّة[1]. لذلك عندما تكون متطلبات الحياة بشأن ما هو عِلمي شديدةَ الصعوبة فإنّه يُحال قدرٌ كبيرٌ من هذه الحياة إلى ما هو أيديولوجي مثالي، من مُنطلَق أنّ وجود الأيديولوجيا يُغطي الإبهامَ في الواقع، ويمحو التعارضَ الذي تثيره الأسئلة الواقعيّة.

٢-٣ الأيديولوجيا نمط يوحي بنتائجه لا بمسبباته

ومن هذا المُنطلَق أصبح للأيديولوجيا مدلولٌ سيء فلم تعد تُشير إلى نظريّة تتولى الشرحَ والتوضيحَ، بل صارت تدل على الشيء ذاته الواجب شرحه[2]. رغم ذلك لا يُمكِن لنا أنْ نَتصور البناءَ الأيديولوجي ووجوده في الواقع إلا من خلال قراءة ذلك الواقع أو تقديم مسببات لقراءته سعياً لامتلاكه. ولأنّ هذا النوع من القراءة للواقع يواجه تحديات ماديّة، فإنّ قراءته من وجهة نظر أيديولوجيّة تتورط في تنميطه عموماً.

إنّ ما تقترحه أية أيديولوجيا ــ كما أسلفنا ــ هو فكرٌ نظري يغتني ويتَطوّر اجتماعياً واقتصادياً عبر ذلك الواقع بأهمية كبيرة، إلا إنّه رغم ذلك من الصعوبة بمكان معرفة الأسباب الاجتماعيّة التي أدت إلى تنميطه[3] . وهذا ما يعني أنّ الوقائعَ الاجتماعيّة تُسهم في تحديد ما هو أيديولوجي أيضاً؛ وبإزاء ذلك يتعذر على جماعة ما تملك وعياً ذاتياً يحظى بالاعتبار أنْ تصنعَ لها أتباعاً من النابهين عبر تسويق نمط من التمثيلات الأيديولوجيّة أو التوسطات اللغويّة فحسب، طالما يعوز وعي الجماعة الكثير لكي يتخطى عتبةَ تجسيد الواقع واستيعابه، إذا ما سَلَّمنا بأنّ القوى المُحركة للواقع تظل مُضمَرةً أو من الصعب الإحاطة بكُلّيّاتها.. ولو أنّها لم تكن على هذا النحو لما أصبحت الفكرة التي نتحدث عنها فكرةً أيديولوجيّة.

إذن يحاول الفكر الأيديولوجي الإحاطةَ بالكُلّيات عبر انتاجيّة تمثيليّة ذهنيّة شبه ذاتيّة؛ وتقديمَ نمط فكري مسبق يوحي بنتائجه لا بمسبباته، من خلال العمل بأدوات ذهنيّة تُؤخذ على إنّها نتاجٌ للفكر من دون عناية بما إذا كان ما توصلت إليه أصلاً آخَر غير الفكر ذاته. يقول ميشيل فاديه في ذلك: "كل فعل بشري يتحقق بوساطة الفكر يظهر كأنه قائمٌ على الفكر" [4]، ومن ثم يملك حُججاً في الإحالة وآليات في التحليل، ويبدو كما لو أنّه متماسكٌ من الناحية النظريّة.

---

[1] ريجيس دوبريه، نقد العقل السياسي، ص180.

[2] هنري لوفيفر، مصدر سبق ذكره، ص65.

[3] يُنظَر: اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج2، دار عويدات، بيروت، 2008، ص611.

[4] ميشيل فاديه، الأيديولوجيّة (وثائق من الأصول الفلسفية)، دار الفارابي، بيروت، 2009، ص28.

والواقع إنّ تطبيقَ المنظور الماركسي الذي طوَّره التوسير يُظهِر غيابَ الصلة بين التمثيلات الأيديولوجيّة والوعي[1]. فهذه التمثيلات مجرد صُور أو موضوعات ثقافيّة تؤثر على البشر عبر عمليات لا واعية يجهلون مدلولها. والناس بحسب التوسير؛ لا يُعبِّرون بالأيديولوجيا عن علاقاتهم مع ظروف عيشهم، بل يُعبِّرون عن الكيفيّة التي يُنشئونَ فيها علاقاتهم مع تلك الظروف. ولا يألونَ بحركة التاريخ المتولدة عنها، فينتجونَ أطراً علاقاتية مشروعة عبر التصُور والتخيّل والتأويل. وعلى هذا الأساس ركّز التوسير بموجب ما أسماه قراءة تأويليّة للماركسيّة على حضور وهيمنة العلاقات الاجتماعيّة، فالذات لا وجود لها، كما الفاعل التاريخي لا وجود له، لكن الوجود للبنيات الموضوعيّة، وأيضاً التقدم الإنساني لا وجود له، بل الوجود لتعاقب التشكيلات الاجتماعيّة. ذلك لأنّ ماركس يُبيّن أنّ: "ما يُحدد في نهاية المطاف تشكيلة اجتماعيّة، ويسمح بتكوين معرفة عنها، ليس هو شبح ماهية أو طبيعة إنسانية، ليس هو الإنسان، بل ليس هو حتى البشر ولكنه علاقة؛ علاقة الإنتاج التي تشكل وحدة مع البنية التحتية"[2]. هذا المنظور مثّل لازمة من لوازم جعل الماديّة التاريخيّة تقترب من العلم.

لعلَ ذلك يجعل من الأيديولوجيا تتساوى مع الواقع فقط في ما يتعلق بوزنِها الذاتي، وفي منطقِها الداخلي، لا في ما يتعلّق بمطابقتها للواقع وبفعاليتها الاجتماعيّة والتاريخيّة[3]. لذلك الأيديولوجيا غير مطالبة بتقديم ما هو صائبٌ عن الواقع أو مطابقٌ له، لأنّها تقترحَ تبويبات ومسالكَ لتصريف فعاليات الأفراد العمليّة، فيطورون لأنفسهم عبرها أُطراً للتشريع تعينهم على فهم العالم المادي.

وحتى الفلسّفة بما هي فلسّفةٌ وليست أيديولوجيا، فإنّها بتعبير فوكو: "شكلٌ من أشكال الفكر لا يَسأل عما هو صائبٌ أو خاطئ، فيرد في سياقه ما هو صائبٌ وما هو خاطئ، وأنّه يتعذر على فكر فصل الصائب عن الخاطئ. هُنا يُمكِن الحديث عن شكل لفكر يتساءل عما يسمح للذات بأنْ تبلغَ الحقيقة، وبأنْ تملكَ المقدرة على معرفة الحقيقة؛ إنّها شكل الفكر الذي يحاول أنْ يُحدِّد الشروطَ والحدودَ التي تصل بها الذات إلى الحقيقة"[4].

---

[1] ويستند آلتوسير إلى ما كان يشير إليه ماركس في إنّ الوعي عنده لا يُمكن أنْ يكون شيئاً آخَر سوى الوجود الواعي، ووجود البشر هو تَطوّر حياتهم الواقعيّة. كارل ماركس وفردريك أنجلز، الأيديولوجيّة الألمانية، مصدر سبق ذكره، ص30.

[2] نقلاً عن: عبد الرزاق الدوّاي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر (هيدغر- شتراوس، فوكو)، دار الطليعة، بيروت، تاريخ بلا، ص ص27-31.

[3] عبد الله العروي، مفهوم الأيدولوجيا، ص48.

[4] يُنظَر: ميشيل فوكو، تأويل الذات، ترجمة: الزواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، 2011، ص24.

والفرد طبقاً لهذه الفرضية هو المُساهم في بناء تَصوّراته، عندما يجعلُها أصلاً له قبلَ أي أصل.. وما خواطر الذهن إلا الانعكاس للأشياء، بدلاً من احتساب الأشياء الحقيقية انعكاساً لدرجة من درجات "الفكرة المُطلَّقة"[1]. ومن المهم الوقوف عند فرضية أنّ الفردَ هو مَن يُعبّر عن علاقاته بالعالم الذي يَصنعه لنفسه، عندما يخرج نتاج ذهنه عن يده، ليصنعَ تَصوّراته عن العالم بنفسه في آخر الأمر[2]. فيما يفضي تكييف الواقع أو تزييف الخبرة فيه إلى وعي زائف وإلى نوع من المخاطرة العقليّة.

ولا مراءَ في أنْ تُظهِر طبقةٌ أو سُلطة طبقية ما تَصوّراً أيديولوجياً متعارضاً مع ما يقابله من تَصوّرات طبقية أخرى، تلك التَصوّرات التي تّعمد ـ عبر منتجيها ـ الإبقاء على تَصور ما يُخاتل الواقعَ أو يخفيه، أو أنها تتستر على صُور وأشكال السيطرة الطبقية التي ربما تخفي أشكالاً أخرى من الاضطهاد العرقي والطائفي في طرائق الإنتاج. فتُمارس الأيديولوجيا، في هذا المعنى، تمويهاً يخفي ما هو حقيقي، وإظهاره يضر بمصالح صانعي الأيديولوجيا أنفسهم.

٣ـ الأيديولوجيا والوعي التاريخي

معلوم أنّ الأيديولوجيا اصطبغت بصبغة التزييف وأشكال التفكير غير العِلمية وغير الحيادية، لكن غيابَ الحيادية فيها لن يمنع العملَ بفحواها، فغالباً ما يُصار إلى تثبيت المضمون الوصفي لها في تعامِلِها مع الواقع، فتصبح حياديةً فقط لمَّا تكون خارجَ التوظيف السياسوي[3]، ولمَّا تُنظِّم المعارفَ في أنساق تداولية، وتُساعد على شد أواصر الجماعات وصياغة مُعتقداتها. فالأخلاقيات والإنسانويات عموماً ليست أكثر من "مُثل عُليا "أو أيديولوجيا لا تُقلِق من قريب أو بعيد عَالمَ الحياة القائم، وتحافظ على قيمتها بالرغم من أنها تُنتهَك وتُنقَض يومياً مما تفرضه مقتضيات الأعمال السياسيّة.

٣ـ١ الأيديولوجيا والحياد

يُمكِن أنْ يُتخَذ ـ من خلال الأيديولوجيا ـ معنى يتغيا منهجاً يقترب من احتياجات الأفراد الاجتماعيّة في الواقع، بإضفاء قشرة رقيقة من الحياد والموضوعيّة والمنهجية المنطقية الصُورية واللغويّة أحياناً؛ ويَحصل ذلك عندما يكون بوسع الأفكار المؤَطَرة بمنهجية أنْ تُحدِّد بشكل عِلمي استخدام ما هو عقلي في إدارة شؤون الأفراد والجماعات.

---

(1) عن: ريجيس دوبريه، مصدر سبق ذكره، ص135.

(2) كارل ماركس وفردريك أنجلز، الأيديولوجيّة الألمانية، مصدر سبق ذكره، ص15.

(3) See: Terry Eagleton, Ideology "Introduction", London: Longman, 2nd edition, 1994, p.2.

لذلك تتعالى الأيديولوجيا على ما هو معرفي، ويتسع مفهومها لا ليخفي تزييف الواقع، بل كُل تمثيلاته، لكنها تُبقي، في الوقت نفسه، على صُور مُحايدة في وظائفيتها أيضاً؛ فمثلاً تَصف الشيوعية الشرقية - في أوروبا - الأيديولوجيّة الشيوعية كمضاد للأيديولوجيّة البرجوازية، للإشارة إلى إنّ مُجتمعاً ما في زمن مُحدَّد يملك أفكاراً خاصة به، يصنعُها بنفسه ولنفسه، ويصبح عالمه "مبدأ وضوحه الخاص"[1]. باعتبار أنّ لكُل نمط من أنماط الإنتاج زمناً وتاريخاً خاصّين به سواءً بالنسبة لتَطوّر قوى الإنتاج أو علاقات الإنتاج.

فتبتعد الأيديولوجيا بهذا الحياد عن أنْ تكون عِلماً يولّد الأفكارَ الصائبة أو الخاطئة، وعلى الأرجح تقترب من أنْ تكون نظريّة عامّة تبحث في كيفيّة استلال الأفكار من الأساس الاجتماعي المادي، وتنظيمها وتوجيهها. فمثلاً لأجل فهم ما هو حقيقي في الاجتماع والسياسة ليس متعسراً أنْ تشيع الأيديولوجيا توجهاً جديداً حيادياً، وتطرح تفسيراً مُنظَماً لِما موجود ومطلوب، طالما أنها منظورٌ مُحدَّد قوامه اللغة والإدراك الفلسّفي للعالم.. وبتعبير آرون فأن "أي سرد فلسّفي هو أيديولوجيا بالضرورة"[2]. ومن ثم ليس لمصطلح الأيديولوجيا إيحاءً سلبياً، بالرغم من وضعه قِبال ما هو مادي أو واقعي؛ بمعنى أنّه يحيل إلى الأشكال المُنظِمة للتفكير الاجتماعي.

وعملياً من الصعب على فرد أو جماعة الفكاك من أسار الأيديولوجيا، فبالرغم من الطابع المتسق والمُنظَّم والموضوعي للفكر النظري المغاير للأيديولوجيا إلا أنّ بُنيانه الجوهري لا يخلو من عناصر من طبيعة أيديولوجيّة أيضاً، والسبب وراء ذلك هو "مشروطية أدواته المعرفيّة الإنسانيّة، ومشروطيته السياقية والظرفية التي تضفي عليه - رغم صحته الموضوعيّة - طابعاً نسبياً في الإطار التاريخي العام"[3]. فحتى نظم المعرفة نفسها لا تنطوي على ما يفضي إلى معرفة خالصة، بل تتدخل السُلطة في تشكيلها بالمعنى الفوكوي.

وبهذا المعنى، فإنّ الأيديولوجيا تسجل درجةً دُنيا من المعرفة رغم أنها تستمد وظيفتها ونظامها من العلاقة الأولية بالمعرفة أو النظريّة[4]. ولكن لأجل إدارة موضوعات الصراع، من المهم ربط النظري بالممارسة الاجتماعيّة الثورية (البراكسيس)؛ أي الممارسة الاجتماعيّة القائمة على المعرفة الماديّة، التي تسمح بوعي الممارسة الإنسانيّة وعياً عاماً. وهذا ما يقوض من سُلطة الأفكار الزائفة. لقد نظر ماركس وأنجلس إلى الأيديولوجيّة البروليتارية على إنّها: "المُعتقدات

---

[1] بول ريكور، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، مصدر سبق ذكره، ص ص139–187.

[2] عن: ميشيل فاديه، الأيديولوجيّة (وثائق من الأصول الفلسفية)، ص24.

[3] محمود أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط2، 1998، ص25.

[4] عبد الله العروي، مفهوم الأيدولوجيا، ص136.

المتعلقة بالمُجتمع وبمسار التغيّير الاجتماعي، والمتصلة بمصالح البروليتاريا، وعبر تَفهّم البروليتاريين لمصالح طبقتهم يتمسكون بهذه المُعتقدات باحتسابهم الطبقةَ التي تستوعب مسار التغيّير الاجتماعي وتسمو على الوعي الزائف"[1]. لكن بصدد قبول ذلك لا توجد سُلطة عامّة مُلكاً لطبقة بعينها، وخاضعة لبنية اقتصاديّة مُعيّنة، ولا تنحصر بمُؤسّسات خاصة. وعليه أُريدَ للنظريات التي طورتها البروليتاريا أنْ تتسم بطابع "العِلمية"، لأجل مواجهة النظريات البرجوازية التي عدّها ماركس نظريات ملازمةً للوعي الزائف. وبحسب النظريّة الواقعيّة فإنّ لينين عدَّ ذلك كُله جزءاً من مجموعة نزاعات الصراع الطبقي[2]. بذلك تعبّر الأيديولوجيا عن طليعيتها بتمثيل الوعي الطبقي والميولات الطبقية تمثيلاً معرفياً نظرياً يقترب من مُعالجة مشكلات الواقع الاجتماعي.

٣-٢ الأيديولوجيا ظاهرة لا تاريخيّة

معايير المُجتمعات والثقافات نسبية بطبيعتها، فتزداد صراحةً في شأن هُنا أو تتكتم عليه هُناك، ومن ثم يصعب تحديد أصل ثابت يشيع الحقيقةَ دائماً، لأنّ ما يُمكِن أنْ يكون حقيقياً يتحوَّل إلى شيء خلافه بالضرورة مع اتساع دائرة الادراك والاحاطة بأصل الشيء وحقيقته، وإنّ الأصول - بتعبير مانهايم - تَبتدِع تَصوّراتها وتدحضها على الدوام، فلا يوجد عِلمٌ مُطلَّق، ولا أيديولوجيّة بروليتارية أو برجوازية - بوصفها شكلاً من أشكال المعرفة - قادرة على فهم العالم التاريخي الفعلي[3]. وليس هُناك مغزى للتاريخ، ولا معنى لتاريخ فعلي يُعرَّف من خلال علامة أيديولوجيّة، بل لا يوجد تاريخ للأيديولوجيا إذا ما سَلّمنا بأنّ الأيديولوجي ظاهرة لا تاريخيّة، وميلٌ مطبوعٌ في الذهن البشري لا يتحمل الكثيرَ من الواقع فيشوهه[4].

والقول بألا تاريخ للأيديولوجيا يعني أنّه لا يوجد مرجعٌ تاريخي قريب من الواقعي سوى الصراع، أما اللغة أو العلامة اللغويّة التي تعمل عليها أيديولوجيا ما، نفسها مجرد نسق شكلاني[5]، تشويهي أحياناً، أو ضرب من التجريد يطرح التاريخَ جانباً[6].

---

[1] مالك محمد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، الأيديولوجيا والسياسة، ص32.

[2] يُنظَر: ريمون بودون وفرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعِلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، المُؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر، القاهرة، ت بلا، ص84. كذلك، يُنظَر: فيصل درّاج، الواقع والمثال، دار الفكر الجديد، بيروت، 1989، ص201.

[3] كارل مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ص162.

[4] ريجيس دوبريه، نقد العقل السياسي، ص138.

[5] صادق جلال العظم، دفاعاً عن الماديّة والتاريخ، دار الفكر الجديد، بيروت، 1990، ص366.

[6] هنري لوفيفر، مصدر سبق ذكره، ص70.

وكما يقول نيتشه في أصل الاخلاق وفصلها: إنّ أصل اللغة فعلٌ من أفعال السُلطة، يُصدره أصحاب الغلبة والهيمنة المتصارعون. وهو جزءٌ مُلازِمٌ لمفهومي قوى وأنماط الإنتاج، أو صُورة للتفاعل ما بين القوى والأشكال بالتعبير الماركسي.

ومن ثم التاريخيّة التي تتحكم في المُجتمعات البشرية - طبقاً لمناهج تفسير العالَم التاريخي السياسي - لم تكن تاريخيّة لغويّة فحسب، بل علاقة سُلطة[1]. ولأنه ليس للتاريخ معنى أو اتجاه، فإنّه يُفهَم تبعاً للصراعات والاستراتيجيات والتكتيكات.

هُنا تتخطى الأيديولوجيا مسببات الصراع، باعتبار أنه لا يوجد مسببٌ عِلمي واحد لفهم واستيعاب ظروف واقعة تاريخيّة - اجتماعيّة! فعند البحث في أصل الطبقات الاجتماعيّة؛ لا نرى طبقة كونية واحدة متراصة، ما دام المُجتمع مجزأ إلى طبقات وفئات في الواقع. على سبيل المثال معتنق العقيدة البرجوازية لا يتنازل عن إرادة طبقته التي تنزع إلى القول بمذهب الخصوصية، في حين يتمسك في الادعاء الشمولي لفكره، وهُنا ليس أمامه سوى مخرج واحد: نفي الخصوصية في اللحظة التي يطالب بها.. من ثم يُتّهم هذا الفكر عملياً بتقنيع الصراع الطبقي[2]. ولذلك لا سبيل إلى إرجاع مُعتقدات الطبقات والفئات المختلفة إلى أصل واحد، وأنّه، عند هذا المعنى، يصبح توصيف ما هو كوني دعوةً أيديولوجيّة. يقول العروي بهذا الصدد: " كُل طبقة وكُل فئة تُبدِع منظومةً فكريةً تُبرّر بها مصالحها الظرفية حسب الواقع الذي يعكسها وحسب حدودها التاريخيّة"[3].

لذلك يصبح العنصرَ الأيديولوجي على غموضه والتباسه مقبولاً فقط لمَّا يؤسِس لتَصُور بديل عن الوعي الزائف، ولمَّا يجري الالتفات باهتمام إلى دور الوعي في التاريخ؛ الوعي المُدرِك لصِلاته الماديّة بعلاقات وقوى الإنتاج السائدة في المُجتمع، أي: المُتجاوِز للتَمثيلات الوهمية.

لكن ضمن هذا المساق العِلمي، على أهميته، يصعب إبعادَ التَزييف كُلياً، فتصبح الأيديولوجيا عند هذه الجزئية العالمَ التمثيلي في تضاده مع الواقع التاريخي. وبهذا النحو لا مشاحة في العثور على الأيديولوجيا مهيمنة حتى في المُجتمعات المتقدمة القادرة على رصد الأسباب المُحرّكة لقوى وعلاقات الإنتاج. باعتبار أنْ ليس كُل أيديولوجيا وهماً محضاً، فأحياناً يُغير الأساس الأيديولوجي موقعه، فلا يعود - تحت ستار تاريخي كاذب - ضرباً من المصير

---

(1) يُنظَر: ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007، ص60.

(2) سيمون دي بوفوار، واقع الفكر اليميني، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1963، ص22.

(3) يُنظَر: عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، مصدر سابق ذكره، ص45.

الأُنطولوجي الذي يقسر الشعورَ على الانفصال عن الوجود، بل يتلخص [الأساس الأيديولوجي] تاريخياً واجتماعياً في توزيع العمل وفي اللغة أيضاً[1].

على هذا تبقى الأيديولوجيا ضرورية، والاعتراف بصلاحيتها يسمح بتقليص حِدَّتها وتوجيهها نحو معنى أقل تشويهاً. حتى الماديّة التاريخيّة نفسها فأنها لم تكن تستطيع أنْ تَتصور المُجتمع الشيوعي بلا أيديولوجيا (أيً كانت أخلاقاً، فناً، أو تَصوّراً للعالم)، وإلصاقُ الأيديولوجيا بالوعي الزائف لم يَحِل دون استعمال الماركسيين أنفسهم لمسمى الأيديولوجيا الشيوعية والأيديولوجيا البروليتارية بِعدّها تدابيرَ تُتخَذ لتوحيد عمل الحزب أو الطبقة وتوجيه الأفعال التي كانوا يُسمونها نظريّة لتفسير مسار التغيّير الاجتماعي[2]. ولقد كان التوسير يُفضِّل استعمال مسمى نظريّة لهذا السبب أيضاً[3].

معنى ذلك إنّه يُمكِن أنْ تحصلَ تحوّلات في أشكال الأيديولوجيا وعلاقاتها في المُجتمع إذا اقتربت من مفهوم التَصور العِلمي للعالم، وأنتجت نظريّة له. فليس بوسع المُجتمع أنْ يستغني عن الأشكال التكييفية الأخرى المناسبة للتنظيم الاجتماعي. ولهذا السبب بالذات، يُقال: إنّ الأيديولوجيا ليست زائدة تاريخيّة[4] أو ليست طيفاً هائماً وتجلياً لـ "الفكرة المُطلَّقة" أو لـ "روح الشعب"، بل ضرورة تستعيد أبعادَها الحقيقية وصلابتَها التاريخيّة كوجهة نظر لطبقة مُحدَّدة[5]. وإنّ الاعترافَ بها يسمح بالتأثير عليها إيجابياً في الأقل، وهو ما يجعلُها أداةً واعيةً للعقل والتاريخ، فتتحوّل من شعار مفرغ المضمون من الناحية الواقعيّة إلى معنى يُلامس المشكلات الاجتماعيّة السائدة.

إذن تُقدم الأيديولوجيا نفسَها تَصوّراً نقدياً للواقع القائم لتجاوز ما هو قائم إلى ما يجب أنْ يكون، وتُدين حاضره باستشراف مستقبله[6]. فتكون بحسب ارنست بلوخ: أداةً للنقد الاجتماعي وللحض على سياسات تقدمية[7]، وللعب أدوار إيجابية لبناء مشروع بديل عن الوعي الزائف،

---

(1) هنري لوفيفر، مصدر سابق ذكره، ص ص71-72.

(2) See: William T. B, Ideologies and Attitudes, New Jercy, Prentice Hall. Inc., 1974, P. 16.

(3) يُنظَر: لويس التوسير، قراءة رأس المال، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، ج٢، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، ١٩٧٤، ص٤٣.

(4) عن: ميشيل فاديه، الأيديولوجيّة (وثائق من الأصول الفلسفية)، ص ص93–94.

(5) جورج طرابيشي، الماركسيّة والأيديولوجيا، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص37.

(6) المصدر نفسه، ص15.

(7) عن: دوغلاس كلنر، الماركسيّة الغربية، ترجمة: كامل شياع، منشورات الحزب الشيوعي العراقي، دار الرواد للطباعة والنشر، بغداد، 2008، ص10.

والانهمام بمشروع الوعي التاريخي المُدرك للأسس الواقعيّة الماديّة، والمُتجاوز للتَمثُّلات والمُعتقدات الوهمية.

٤- الأجهزة المُؤسِّسة للمشروعية

عادةً ما تُعرف الأيديولوجيا بأنّها تركيبٌ وظيفي في كُل مُجتمع حديث، ويُطلَق على هذا التركيب؛ جهاز الدولة الأدبي، ولهذا الجهاز وظيفتان كما هو شائعٌ، الأولى: موائمة الرؤى الاجتماعيّة المُعقدة والمتعارضة، والثانية: الوصول إلى معنى المشروعية في برنامج دولة ما. وتعني المشروعية اعتراف الناس بصلاحية نسق سياسي وفلسّفي وثقافي محمول برؤى مُحدَّدة يُعبَر عنها من خلال جهاز دولاني مُعَد لهذا الغرض، ويشتغل ضمن حيثية زمنية ومكانية مُعيّنة[1]. وتتحقق هذه المشروعية من خلال: "قُدرة النسق السياسي والثقافي والفلسّفي على تحصيل الاعتراف به"[2]. عبر صياغة منهجية تُمرِر محمولاته وتُقنِع الأفرادَ والجماعات بغايات ما يتوفر عليه. الأمر الذي يجعل من عمليّة الانتقال من قراءة إلى أخرى عمليّة مُمكِنة، فيصبح ما ليس معقولاً مدخلاً تأويلياً معقولاً، وتصبح تشابكات الواقع اليوميّة مخرجاً تبريرياً مُتوقعاً.

٤-١ الأيديولوجيا والمشروعية

أيةَ صُورة أدبية من صُور الأيديولوجيا؛ قوميّة، ليبراليّة، ماركسيّة، طائفية، مناطقية، جهُويّة، هي أنموذج أو نسخة مُمكِنة لجماعة مُحدَّدة، ذلك ما يعفيها من تبنّي النماذج الأخرى المتوافرة، فتُحاول أنْ تعيد كُل جماعة النظرَ في معطياتها بفاعليّة[3]. وبوسع الأيديولوجيين عموماً قبول أو استبدال كثير من الترتيبات حالما تصنع هُويّاتهم تبريرات وبدائل تأويليّة عن الواقع من تلقاء ذاتها.

الذي يحصل في الواقع؛ إنّ التَصوّرات الطبقية والثقافيّة والإثنية المتنوعة تتصارع فيما بينها ضمن نظام اجتماعي، فيعمل الجهاز الأيديولوجي في غضون عمليّة التصارع على احتكار

---

(1) لا يقتصر توصيف الجهاز الأيديولوجي للدولة على الأجهزة المتعلقة بمُمارسة العُنف الفيزيائي كالجيش والشرطة والقضاء والسجون، إذ تندرج فضلاً عن ذلك؛ الكنيسة بوصفها جهازاً مذهبياً، والمدرسة ووسائل الإعلام الرسمية (الراديو والتلفزيون)، ومُؤسّسات إنتاج الثقافة. يُنظَر: نيكولاس بولانتزاس، نظريّة الدولة، ترجمة: ميشيل كيلو، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص26.

(2) يورغن هابرماس، بعد ماركس، ترجمة: محمد ميلاد، دار الحوار للنشر، اللاذقية، 2002، ص185.

(3) مقابلة مع اليساندرو بيزورنو، (الهُويّة والفعل الجماعي)، عن كتاب: عِلم الاجتماع (من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليوميّة)، تحرير: فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، 2010، ص156.

مهمة تمثيل الكُل الاجتماعي، وصُنع "المشروعية "الأيديولوجيّة، وإعادة بناء نسخة مُمكِنة عن الواقع ومذهبته بإحكام.

إذن، عبر الجهاز الأيديولوجي الأدبي تُستَثمَر الممارسات الماديّة والأعراف والعادات وأساليب الحياة المتداخلة مع بنى الممارسات الاجتماعيّة داخل مُجتمع ما، بما فيها الممارسات السياسيّة والاقتصاديّة التي تلعب أدوار جوهرية في إنتاج مجمل التَصوّرات عن المِلكيّة والتملُّك وتقسيم العمل الاجتماعي داخل علاقات الإنتاج.

وحيث إنّ الأيديولوجيا منظومة صُورية توجه الناسَ سلوكياً وأخلاقياً نحو تغيّير الممارسات السياسيّة، أو الدفاع عنها عبر شعارات ورموز دالّة، فإنّها تتجنب ابتداع السيطرة بالقمع والعُنف العاري "فتضفي الشرعية على استعمال العُنف، وتُوفِّق ما بين طبقات وأقسام اجتماعيّة مُعيّنة، وما بين الطبقات معاً"[1].

هذا النوع الممارس من المذهبية الأيديولوجيّة يترك آثاره في الجسم الاجتماعي، كما يفعل الاضطهاد المادي المنظم؛ ما يجعل السُلطة تستوي في مكانها ويجعل الناس يتقبلونها ولا يعدونها قوة ناهية: "باعتبارها شبكة مُنتِجة تصوغ المعرفة وتستخلص اللذة عبر الجسم الاجتماعي كُله، أكثر مما تبدو هيئة سلبية وظيفتها ممارسة القمع"[2].

هُنا نُلاحظ مُلازَمة جهاز الدولة المُعبَّر عنه ضمن الجسم الاجتماعي لأجهزة أخرى مثل الأسرة والمدرسة ومكان العبادة والأحزاب والشركات والنقابات والمنظمات الاجتماعيّة.. الخ. وهذه الأجهزة غالباً ما يُراد بها أنْ تكون خاصة ومستقلة عن الدولة، لكنها تُمكِّن السُلطة من توزيع تأثيراتها بصورة مُتصلة وغير متقطّعة، ومُكيّفة ومتفرِّدة على الجسم الاجتماعي كُله، ولها تأثير سياسي أمضى من تأثير بنى الدولة السياسيّة بأشكالها التقليدية.

٤-٢ الأيديولوجيا الدولانية

للتقنيات الجديدة أو المذهبيات الأيديولوجيّة فاعليّة أكثر من التقنيات المُستعملة سابقاً، وأقل تكلفة من الناحية الاقتصاديّة، وأكثر إصابة لأهدافها، وأقل مقاومة من قبل الأتباع. فيُفهَم بوساطة نظريّة الأيديولوجيا دورها الأساس عندما يكون للدولة وجهان: وجه مادي قمعي، ووجه أدبي تأديبي، والوجه الثاني لها هو الأيديولوجيا الدولانية[3]. وليست أيديولوجيا الدولة شيئاً ما مُحايداً داخل المُجتمع، بل تصنع تَصوّرات طبقية، وهي بذلك قوة جوهرية للطبقة السائدة.

---

[1] نيكولاس بولانتزاس، مصدر سابق ذكره، ص25.

[2] ميشيل فوكو، نظام الخطاب، مصدر سق ذكره، ص ص63–64.

[3] Louis Althusser, Essays On Ideology, Verso, London, & New York, 1993, P21.

لذلك توضع علاقة التأثير والتأثر ما بين البنيتين الفوقية والتحتية مقابل علاقة الحث ما بين ادّعاء الشرعية والاعتقاد بها[1]. فتَصنع الطبقات السائدة من مواقعِها قِيماً نظريّة عامّة ومشروعيات تكون بعدئذ قيمَ المُجتمع والواقع الاجتماعي[2]. وتحيل هذه المشروعيات على ما كان ينعته ماركس بـ "وعي الاستغلال المُتبادل"[3]. لقد آمن ماركس بأنّ أفكار الطبقات السائدة هي الأفكار السائدة في كُل العُصور، مُنطلَقاً من أنّ الطبقة تشكّل القوة الماديّة السائدة في المُجتمع، والمُؤهّلة لتركيب وبناء القوة الروحية أيضاً. وتمشياً مع هذا الافتراض، يصبح استعمال العُنف الطبقي الدولاني عبرها، مُدعَماً بترجيح الأيديولوجيا، ومُبرَرَاً ومُكيَّفاً بأطر قيمية أخلاقية ووجدانية وتشريعية. والتي يُبرِّر بها استعمال العُنف ويُشحَن بمفردات رمزية "قدسية"، ودلالات إيحائية تؤسس لما سُمي بـ "أساطير الأيديولوجيا"، باعتبار أنّ الأسطورة أحد أوجه التعبير عن "الحقائق" التي تعيشها الجماعات، أو أنها خُلِقت لتقوم بوظيفة الترميم والاستكمال. وهذا ما تذهب إليه أرندت في أن: "أجهزة الدولة والبوليس السري تُنتِج الأسطورة وتُكوّنها عن نفسها"[4]. ولأجل أنْ تكون الأيديولوجيا مُلامسة للواقع نِسبياً؛ تُخفِّض من نسختها المؤمثَلة بحذق، لتبدو مقبولة شعبياً، فتُحاولُ أنْ تجعل من القيم والاتجاهات والمُعتقدات السائدة مُحايدة وواضحة بذاتها، أو بدهية لإدامة حس وفهم مُشتركين[5].

وبما أنّ المرء لا يسعه إلا التحرك في ضوء أطر منطقية مفروضة واقعاً، ففي هذه الحالة تُعيد الأيديولوجيا توزيع ذاتها عبر مزيد من الإجراءات التي يكون دورها الحد من سُلطاتها ومخاطرها، والتحكم في حدوث المحتمل، وبتعبير فوكو: "إخفاء ماديتها الثقيلة والرهيبة"[6]. ويُمكِن في هذا السياق معاينة عمل علاقات الهيمنة في المجال العمومي، عندما تَدمج مجموعة

---

(1) يُنظَر: بول ريكور، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، مصدر سابق ذكره، ص177.

(2) تَسند الدولة العديدَ من مهامها إلى القنوات الاجتماعيّة الخاصة، وتصنع جفاءً حذقاً معها، لتبدو مقبولةً اجتماعياً، وتُقنِع المحكومين بمشروعيتها، فتمارس تلك القنوات الاجتماعيّة مهام ضبط وتلقين وتوجيه ومراقبة هي من مُمارسات الدولة في الواقع، وإنْ كان يُظَن ألا شأن للدولة بها. والحال، فإنّ ما يحصل من تداخل بين المجالين السياسي والاجتماعي يكون صنيعاً أيديولوجياً غير محسوس، وغير مُدرَك غالباً، ينشط ضمن بنية اجتماعيّة ما. (الباحث)

(3) يُنظَر: كارل ماركس وفردريك أنجلز، الأيديولوجيّة الألمانية، مصدر سبق ذكره، ص446.

(4) Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism (NEW YORK: Harcourt, Brace, 1951), p294.

(5) يُنظَر: دانيال تشاندلر، معجم المصطلحات الأساسية في عِلم العَلامات، مصدر سبق ذكره، ص84.

(6) السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العربي، بيروت، 1994، ص168.

الأفكار المُشتركة والمُهيمِنة الأفرادَ في جماعة أو حزب أو حركة، وهذه الأفكار تُحدِّد الأشياءَ المقبولة والمهامَ السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة التي يتم اعتناقها ويتعيّن انجازها طوعياً.

وفي ضوء ذلك تؤدي الأيديولوجيا وظيفةَ التعبئة، فتخلق ارتباطاً وجدانياً بين الأفراد الذين يزدهون ويتشاركون بأفكارهم، ويتفاخرون بعضهم بالبعض الآخر. بحيث تبدو مشاعر كُل واحد منهم قويةً بشعوره أنه قريب من آلاف المشاعر المثيلة، فتكون الفكرة الجوهرية عندهم هي الحس المُشترك، وهذا لن ينبني عبر الصراحة أو عبر المعنى القابل للالتقاط، ولأنّه ليس ثمة صراحة بالمُطلَّق في خضم الأيديولوجيا، فإنّ الدولة (أية دولة) تنشط بالمذهبية الأيديولوجيّة المسوّغة للقمع وتعمل على صناعة الحس المُشترك، فتؤثر في توجيه المواقف بقدر ما تمتنع عن ممارسة النهي المباشر، وتَحول وتعيق وتنقل وتبرر بقدر ما تكذب وتزوِّر وتطمس وتكتم.

إذن يُمكِن القول إنّ تَصوّرات الأفراد أو الجماعات - حول واقعة ما - مهما كانت زائفة أو صائبة تتأسس عبر أنظمة معرفيّة أخلاقية ودينيّة وفلسفيّة... وهذه الأنظمة تنطوي على قراءات غالباً ما تكون منفصلة عن الواقع، وأنها تعمل على تكثيف المواضيع المعرفيّة المتعدِّدة والمتنوعة بإرجاعها إلى سببية فريدة، وهذا ما يتعارض مع الواقعي إنْ لم نقل يُزيّفه، فيصبح تطبيق ما يُعتَقَد بعِلميته مادةً توصيفيةً لا صلة لها بما هو معرفي البتة، مثلما ليس من سنخ العِلم القائم على التجربة.

وإذا ما توخينا طرح ما هو معرفي باعتماد مقاربة عِلمية له، فإنّ ما ينتج عنه بالضرورة صُور وتمثيلات تُحاولُ أنْ تُجيب نسبياً عن "حقيقة "كامنة في الواقع بتأويله، وتُحاولُ أنْ تحل محل العِلم في ممارسة وظيفته التفسيرية، مثلما تحل أيضاً محل الشروط والأحوال الواقعيّة المُنتِجة لفكر ما، وتصبح أكثر إغراءً من أي مسبب موضوعي يواجه الناس في حياتهم اليوميّة.

باختصار، الأيديولوجيا هي العالم التمثيلي في تضاده مع الواقعي، والوسيلة المجازية التي تتوسل تمثيل الواقع، ولا ينحصر ألق حضورها في المُجتمعات التقليدية حسب، بل في المُجتمعات المتحضرة أيضاً القادرة على كشف القوانين المُحرّكة لقوى وعلاقات الإنتاج.